عن القلب والنفس

سؤالٌ وجواب

الشيخ عبد الله جوادي الآملي

المقال ٣
الأسئلة والأجوبة ١١
فائدة ٢٤



كما أنه لابد من عرض أية رواية و وجهة و رؤية و كتابة للفرد أو المجتمع على القرآن الكريم ليُعرف الحق منه من الباطل و الصدق من الكذب والحسن من القبح، كذلك لابد و أن تعرض على القلب السليم أية محاولة و انجذاب وثورة و فورة و أي ضرب من ضروب التصرفات و المحادثات و المصنفات التي تُشكّل العنصر الرئيسي لهوية الإنسان، ليتحقق تفسير الإنسان بالإنسان علميًا، و يتبين أثر مثل هذا التفسير تربويًا.

إنّ القلب السليم ميزان كامل و وزن حق. فإن عُرضت سنّة أي امرئ وسيرته على قلبه السليم و يتم من خلال ذلك تفسيرها علمياً و وزنها عملياً، سيتبين بالكامل جمال هذه السيرة أو قبحها: {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} الحشر/ ١٨، و إن القرآن الكريم الذي هو الدليل على تفسير الإنسان بالإنسان قد بيّن سرّ هذا التقييم عبر إرشد خاص قائلاً: { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} الزلزلة/ ٧-٨.

إن رؤية الخير و الشرّ بكمالها و تمامها تتجلى في يوم القيامة؛ إلا أن يموت الإنسان بموت إرادي في الدنيا و كان من أهل القلوب السليمة، فإنه سيشاهد أوجها و حضيضها، «إذ ما من عمل يصدر من ابن آدم من قول أو فعل أو فكر أو عمل، خير أو شر، إلا و له تأثير في أحوال قلبه»[١]، لأن القلب السليم الذي هو ميزان للقسط، يعدّ الحصيلة لكل مثمن فيكون القلب الشفاف علامة على صحة العمل و حلّيّته و القلب الأسود علامة على حرمته.

و إن منشأ مثل ذلك الشهود و هذا النيل، هو أن جميع أعمال الإنسان متعلقة بقلبه و مصدرها و مآلها منه و إليه، و لهذا فهي تتحدث عن تلك المرحلة و هي السبب في قبض القلب و بسطه و بطشه و نشاطه و رجائه وخوفه. و إن علماء فنّ تفسير الإنسان بالإنسان الذي هو في حدّ ذاته ضرب من التفسير الأنفسي للقرآن الحكيم، يعرفون درجات الطاعة كما يعرفون دركات المعصية؛ فكما أن الذنب قد يكون كبيراً و قد يكون صغيراً و إن كانت الذنوب بأسرها من حيث التمرّد على الله العظيم كبيرة، كذلك

---

[١] كسر أصنام الجاهلية، صدر المتألهين، ٧٧-٧٨.

الطاعة فإنها تارة تكون أهم و أخرى تكون مهمة؛ أي أن أصل الاهتمام بالطاعة وأهميتها أمر قطعي؛ إلا أن درجاتها مختلفة و أثرها معلوم للصدر المشروح لأرباب القلوب؛ و من هنا يمكن الوقوف على صِغَرها و كِبَرها و نسبة أهميتها، و هذا ما هو مستنبط من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) حيث يقول:

«عباد الله! زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا و حاسبوها من قبل أن تحاسبوا»[1].

إن المعيار الرئيسي للتمييز بين الحق و الباطل هو الوحي؛ إلا أن القلب السليم للإنسان القرآني بعد عرض عقيدته و خُلقه و عمله على القرآن والعترة و الوصول إلى استقامة القلب، يمكنه أن يكون ميزاناً لأعماله و أفعاله وأقواله؛ أي يمكنه بعد عرض المسائل المذكورة على القلب معرفة صلاحها بصفاء القلب أو طلاحها بظلمته، لأن ما يخالف أمر الله، رين على القلب وما يوافق حكم الله شرح للروح. فمن لم يغفل عن نفسه و كان قلبه للعرض على الميزان الحقيقي ميزاناً لتقييم الأعمال، يمكنه جيداً معرفة أن هذا العمل يتصف بالصواب أو الخطأ.

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ع)، خطبة ٩٠.

و يمكن استخراج نماذج للمرجعية العلمية للقلب و إمامته من حيث القيادة، و كذا من حيث التحكيم من الأحاديث النورانية لأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام):

أ- عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ (عليه السلام) فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ فِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و آله و سلم قَالَ: «وَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ وَابِصَةَ بْنَ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيَّ أَتَاهُ فَقَالَ: لَا أَدَعُ مِنَ الْبِرِّ وَ الْإِثْمِ شَيْئاً إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ (ص): أَ تَسْأَلُ عَمَّا جِئْتَ لَهُ أَوْ أُخْبِرُكَ؟ قَالَ: أَخْبِرْنِي، قَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَ الْإِثْمِ، قَالَ: نَعَمْ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا وَابِصَةُ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ بِهِ الصَّدْرُ وَ الْإِثْمُ مَا تَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَجَالَ فِي الْقَلْبِ وَ إِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَ أَفْتَوْك»[١].

إن السرّ في اطمئنان القلب حيال الخير و البرّ هو أن البرّ من الأوامر الإلهية وإن القلوب لتطمئن بالله و بما يُرضيه.

---

(١) الوسائل، الحر العاملي، ج٢٧، ص ١٦٦.

ب- كَانَ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِّ الصادق (عليه السلام) جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِّ (عليه السلام)[1]: «يَا هِشَامُ أَلا تُخْبِرُنِي كَيْفَ صَنَعْتَ بِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ وَ كَيْفَ سَأَلْتَهُ؟ فَقَالَ هِشَامٌ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِّ إِنِّي أُجِلُّكَ وَ أَسْتَحْيِيكَ وَ لَا يَعْمَلُ لِسَانِي بَيْنَ يَدَيْكَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِّ (عليه السلام): إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَافْعَلُوا.

قَالَ هِشَامٌ: بَلَغَنِي مَا كَانَ فِيهِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَ جُلُوسُهُ فِي مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَ دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ ...،

ثُمَّ قُلْتُ: أَ لَكَ عَيْنٌ؟

قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِهَا؟

قَالَ: أَرَى بِهَا الأَلوَانَ وَ الأَشْخَاصَ، قُلْتُ: فَلَكَ أَنْفٌ؟ ...

---

[1] النقط تشير لمواضع الاختصار في نقل الرواية.

أَلَكَ فَمٌ؟ ... فَلَكَ أُذُنٌ ؟... قُلْتُ: أَ لَكَ قَلْبٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: أُمَيِّزُ بِهِ كُلَّ مَا وَرَدَ عَلَى هَذِهِ الْجَوَارِحِ وَ الْحَوَاسِّ، قُلْتُ: أَ وَ لَيْسَ فِي هَذِهِ الْجَوَارِحِ غِنًى عَنِ الْقَلْبِ؟

فَقَالَ: لا، قُلْتُ: وَ كَيْفَ ذَلِكَ وَ هِيَ صَحِيحَةٌ سَلِيمَةٌ، قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّ الْجَوَارِحَ إِذَا شَكَّتْ فِي شَيْءٍ رَدَّتْهُ إِلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَيْقِنُ الْيَقِينَ وَ يُبْطِلُ الشَّكَّ. قَالَ هِشَامٌ: فَقُلْتُ لَهُ فَإِنَّمَا أَقَامَ اللهُ الْقَلْبَ لِشَكِّ الْجَوَارِحِ؟

قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: لا بُدَّ مِنَ الْقَلْبِ وَ إِلَّا لَمْ تَسْتَيْقِنِ الْجَوَارِحُ؟

قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُ: ... فَاللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى لَمْ يَتْرُكْ جَوَارِحَكَ حَتَّى جَعَلَ لَهَا إِمَاماً يُصَحِّحُ لَهَا الصَّحِيحَ وَ يَتَيَقَّنُ بِهِ مَا شُكَّ فِيهِ وَ يَتْرُكُ هَذَا الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي حَيْرَتِهِمْ وَ شَكِّهِمْ وَ اخْتِلَافِهِمْ لَا يُقِيمُ لَهُمْ إِمَاماً يَرُدُّونَ إِلَيْهِ شَكَّهُمْ وَ حَيْرَتَهُمْ ...»

و في نهاية هذا التقرير الطويل ضحك أبو عبد الله (عليه السلام) و قال: «يَا هِشَامُ مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟ قُلْتُ: شَيْءٌ أَخَذْتُهُ مِنْكَ وَ أَلَّفْتُهُ، فَقَالَ: هَذَا وَ اللهِّ مَكْتُوبٌ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى»[1].

إن بيان ما ورد في هذه المناظرة من معارف يحتاج إلى رسالة منفصلة ليتّضح أن هذا الاستدلال هل هو من سنخ دليل اعتبار التمثيل المنطقي، و هو نفس القياس في أصول الفقه أو من قبيل الأولوية الخارج عن صنف الدليل المذكور، و أن استدلال هشام بن الحكم لو لم يعد إلى البرهان العقلي القطعي، فكيف يكون حجة للآخرين، و أخيراً ما هو الدليل على الالتزام بهذا الدليل المحكيّ؟

في الجملة يمكننا في المقدمة أن نقول أولاً إن لهذا الاستدلال بيان عقلي، وثانياً إن هشام بن الحكم و إن لم يكن حجة الله، إلا أنه تكلم في محضر المعصوم و حجة الله و هو الإمام الصادق (عليه السلام) و قرّر الإمام (عليه السلام) استدلاله معتبراً أن ما ذكره مكتوب في صحف إبراهيم و موسى (عليهما السلام)؛ أي أن الأنبياء السابقين (عليهم السلام)

[1] الكافي، الكليني، ج١، ص ١٦٩-١٧١.

أيضاً مصدقون بهذا الأمر، و معلوم أن تقرير المعصوم (عليه السلام) كقوله و فعله المباشرين حجة شرعية.

❊ ❊ ❊

مصدر المقال:

كتاب: «تفسير انسان به انسان» (= تفسير الإنسان بالإنسان)، ص ٢٨-٣١.

الأسئلة والأجوبة

س: ما هي طرق رقّة القلب؟

إن هناك رقّة قلب و ضعف قلب، فمن الممكن أن يقول شخص إني لم أذبح خروفاً أو لم أر ذبح دجاجة في كل عمري، فهذا ليس برقّة قلب بل هو ضعف النفس. لأن نفس هذا الشخص الذي يقول بأني لا أ تحمّل مشاهدة الخروف المذبوح، حينما يأكل كباب لحم الخروف، لا يبالي إذا وصلت رائحة الكباب إلى شامّة الفقراء، و لا يهتزّ قلبه لذلك، و لا يفكّر بهم. فإن رقّة القلب و العاطفة من الفضائل الإنسانية، و الحال أن ضعف النفس ليس من الفضائل. إن الطريق الذي يطويه المرء من خلال سلوكه وفقاً للأوامر الإلهية خدمة لخلق الله هو رقة القلب، و الطريق الذي لا يوافق الأوامر الإلهية هو ضعف النفس.

رقيق القلب هو الإنسان الذي إذا رأى فقيراً يتأثّر حقيقةً، و إن دار الحديث عن القيامة و النار يتأثّر حقيقةً، فيتأثر حقيقةً لتدهور حالة البعض، فإن هذا يُطلق عليه رقّة القلب.

و إن الطريق لرقة القلب هو عدم ارتكاب الذنب. فقد روي عن الإمام علي (عليه السلام): «ما جفّت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب» [بحار الأنوار، المجلسي، ج٧٠، ص٥٥].

* * *

س: إنّ صلاة الليل تؤثّر على دراستي خلال النهار فماذا أفعل؟

لو أراد الإنسان أن يصلي صلاة الليل فإنها لا تؤثر على دراسته في النهار، شريطة أن ينام في الليل مبكّراً، و أن يتناول طعاماً خفيفاً. فإن طعام العشاء كلما كان أقلّ كان أفضل. و أنتم تعلمون أن البدن لا يحتاج إلى أكثر من وجبتين من الغذاء. و لقد قيل لنا لا تأكل و أنت شبعان، وجاء في الروايات بأن الأكل في حال الشبع يقلل من الاستعداد. و في إحدى البيانات النورانية لأمير المؤمنين (عليه السلام): «لم تجتمع الفطنة و البطنة»، فإن كثير الأكل لا يصل إلى الفطنة بتاتاً، و ذلك لأن سعي الروح و جهدها سينصبّ بأجمعه

لهضم هذه الأطعمة، و لا تبقى لديه فرصة للتفكّر. و ذلك كأن تجعل عالمًا أخصائياً كنّاساً في الأزقّة و الشوارع يجمع القمام و النفايات.

فلو استطاع شخص أن يكون أستاذاً لِمَ نجبره على الكنس؟

إن روح الإنسان بإمكانها أن تكون أستاذاً و مربياً جيّداً، فمن المؤسف أن نجعلها كنّاسة للجسم، و أن نأمرها بجمع النفايات. فإن الطعام الذي نتناوله يستغرق مدة طويلة حتى يتبدّل إلى مواد مدفوعة و إلى نفاية. و هذا العمل لا يقوم به البدن؛ بل الروح هي التي تتولى هذا العملية بواسطة البدن. إن للروح طائفة من القوى المُدركة، و مجموعة من القوى المُحرّكة. و توجد أيضاً في الأخيرة طائفة من الأدوات الفيزيائية كالمعدة و الأمعاء و القلب، وإن الذي يبدّل الغذاء إلى دم و يقسّمها بين الشعر و الضفر و الأذن و العين وأهداب العين بعدالة، هو نفس الإنسان و روحه.

و الحاصل أن من المؤسف أن يجبر الإنسان روحه على الكنس. و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) ذلك الوجود المبارك: «لا تجمتع عزيمة و وليمة» [نهج البلاغة،خطبة

٢٤١]، فبعض الناس أهل الولائم، و بغيته التنقّل من وليمة إلى أخرى لأكل الطعام، و الحلول ضيفاً في كل يوم على أحد. و إنّ من كان من أهل الولائم لا يمكنه أن يكون أهل عزم. فالأفضل على المرء أن يجلس على مائدته مهما أمكن. و عليه إن أراد أن يكون من أهل العزيمة، و من ورثة أولي العزم، أن يكون مراقباً حتى في تردّده مع الأرحام.

إن الذهاب في بعض الأحيان إلى بعض الولائم لا إشكال فيه، أما أن يكون من روّاد الولائم فإنه لا يتلاءم مع أن يكون من أهل العزم.

إذن فإن صلاة الليل لا تمنع الإنسان من عمل النهار، شريطة أن يراقب بعض المسائل الجانبية. إن الإنسان بإمكانه ألا يشاهد الكثير من البرامج التلفزيونية، فإن المسلسلات ليست نافعة بأجمعها، و إن الكثير من الجلسات و المحادثات غير مفيدة.

و قد قال الأمير (عليه السلام) لولده: إياك أن تعمل أو تقول كلامًا ما، يكون مضحكًا للآخرين عليك، فإن في ذلك صغرك.

فإذا استيقظت قبل أذان الفجر بنصف ساعة، لتوافرت لك الفرصة لأداء صلاة الليل و للقيام بالصلاة في أول وقتها كذلك؛ ثم تستريح قليلاً و لا تتأثر دراستك خلال النهار أيضاً.

*** *** ***

س: ماذا نفعل لأداء العبادات بشكل أفضل؟

لقد ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في بيان نوراني: «ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النية» [الوسائل، ج١، ص٥٣]، فإن الإرادة إن قويت لا يُبتلى البدن بالضعف بتاتاً. إن الأصالة فيما بين البدن و الروح للروح. و لا يتأتى للبدن مباشرة أن يُفتي و يقول بأني لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل. فلو قويت الإرادة لا يضعف البدن بتاتاً. و هذا من غرر بيانات الإمام السادس، الصادق (عليه السلام). فلو أصبحت النية بالنسبة لأمر ما قطعية و قوية فإن البدن سيُسايرها.

و لقد قيل لنا بأن البدن خير مركب، فلا تفقد هذا المركب و هذه الآلة، و لا تقوم بما يضرّ هذا البدن. و لذا قالوا لو كان الوضوء يضرّ بالبدن تيمّم، و لو كان الصيام في شهر رمضان يضرّ بالبدن عليك بقضائه في وقت آخر. و لو ترون أحياناً بأن بدن البعض في القبر لا يبلى فإن سببه هو إصلاح هذا البدن و حركته تحت قيادة الروح بشكل صحيح، إن من المؤسف أن نؤذي من هو تحت إمرتنا.

إن للروح على البدن ولاية، و إن من سوء الفعل أن تتصدى لإيذائه. فلا يحق للإنسان أن يظلم بدنه، و يقوم بما يُهلك هذا البدن، فإن هذا العمل محرّم. إن البدن أسير للروح فيا حبّذا لو انتفعنا من هذا البدن غاية الانتفاع، و لذا يستطيع الإنسان عبر الابتعاد عن الإفراط و التفريط أن يصل إلى الاعتدال و أن تكون له إرادة قوية. فلو خارت قوى البدن لا سامح الله فإنه سيسقط عن حيّز الانتفاع. ينبغي عليكم في المستقبل إن شاء الله أن تخدموا هذا المجتمع، تدرّسون و تألّفون، و لذا فإن أحد أفضل الطرق هو أن تفكّروا بسلامة أبدانكم.

س: ما هو مقام الطمأنينة و هل هناك فرق بين الطمأنينة و الإيمان؟

إن للإيمان درجات ويمكن أن يقترن بعضها بالتزلزل. إلا أن المقام الرفيع للإيمان هو الطمأنينة، و السبيل الموصل إلى هذه الدرجة الرفيعة هو ترك الذنوب. فلو لم نسمّم أنفسنا بالذنوب وكنا في المسير الإلهي ستجري الأمور على ما يُرام. و إذا تضرّرنا بعض الشيء فإن ذلك لنضجنا و امتحاننا.

إن القمح مادام في المخزن فإن له ثمن زهيد، فلو وُضع تحت حجر الرحى وتعرّض للضغط و تبدّل إلى طحين ستزداد قيمته. و إن وُضع في التنور و تحوّل إلى خبز لارتفعت قيمته عما كانت عليه و صار طعاماً للإنسان. فإن هذا الضغط هو سبب كمال القمح. قال الله في القرآن الكريم: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} البقرة/ ١٥٥ ، إذاً فالطمأنينة هي المرتبة الرفيعة من الإيمان.

س: ماذا نصنع لئلا نتلوّث ثانية بعد التوبة؟

عليكم بالمراقبة، و هي أن يكون الإنسان مراقباً لنفسه. فإن الرقيب مأخوذ من الرقبة. و من يمدّ رأسه في الامتحانات حتى يرى، كي لا يغشّ أحد يقال له رقيب. و قالوا كن رقيب نفسك، ومُدّ رقبتك دوماً و انظر من الذي أتى نحوك، و من الذي يريد أن يجلس مكانك، هل هو شيطان أم ملك، فلو زلّ الإنسان لا سامح الله فإن ذلك لا يعني حرمانه إلى الأبد. فإن الله يقبل توبته .



س: ماذا نصنع لنتغلّب على أفكارنا، و لاسيما الأفكار الشيطانية؟

المراقبة هي من أجل ذلك. فلقد قيل لنا أيّ عمل قل«بسم الله الرحمن الرحيم». أي أن أيّ عمل تريد القيام به لابد أن يكون بصورة يمكنك القول في بادئ أمره: باسمك يا الله. فإن هذا العمل يعطينا أمرين؛ الأول هو ألّا نقوم بأيّ عمل من دون دراسة و إمعان نظر و تفكير في عاقبته. و الثاني هو أن نختار عملاً يمكننا أن نقول باسمك يا الله.

وإن مثل هذا العمل إما أن يكون واجباً أو مستحباً. فإن العمل المحرّم والمكروه لا يمكن الإتيان به باسم الله. فلو قمنا بهذا العمل سيكون الشيطان أسيراً بأيدينا.

* * *

س: ما هو الطريق الذي تقترحونه لمواجهة الشبهات و الوصول إلى يقين لا يدانيه أي شك غير طريق المطالعة و التحقيق؟

إن التحقيق و المطالعة هي نصف الطريق. و النصف الآخر منوط بعمل الإنسان. فإن الإنسان لابد أن يكون محققاً و متحقّقاً كذلك. فالمحقق هو من يتعمق في البحث و التحقيق من الناحية العلمية و يحلّ المسائل لنفسه، أما المتحقّق فهو من يصدّق بما عرفه و يعمل به، فمن كان عالماً محضاً أي كان يعرف كثيراً من الكلام المتقن و المحكم و لكن كان فاقد الإيمان، لم يصدّق بما علمه و لم يعمل بالحقائق التي انكشفت له، سيقع شيئاً فشيئاً في الشك و الشبهة.

لقد عبّر الله عن فرعون بتعبير لطيف، فيقول: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل/ ١٤، و لقد قال موسى الكليم لفرعون كما في القرآن الكريم:{ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} الإسراء/ ١٠٢، ولكنه لم يصدّق بذلك.

إن هناك فهم و هناك تصديق، فالفهم ليس باختيارنا أما التصديق فهو باختيارنا. أي لو فكّرنا و درسنا و طالعنا سنصل إلى علم، و بعد ذلك لا يمكننا القول أنا لا أريد أن أفهم. فإن الإرادة لا علاقة لها بالفهم و لكنها دخيلة في التصديق. أي أن الإنسان إذا فهم شيئاً يمكنه أن يصدّق به ويمكنه ألا يصدّق، يمكنه أن يذعن به أو ألا يذعن. فقد يتباحث شخصان وعلى الرغم من أن أحدهما يوضّح الحق للآخر إلا أن الثاني لا يستسلم، ونفسه شريرة بحدّ يقف أمام ٢+٢=٤، و رغم فهمه يقول بأني لا أصدّق.

فلكي لا نصاب بفايروس «الشك و الشبهة» الباطني، علينا أن نصدّق بما علمنا و نعمل به. فلو لم يقترن العلم بالعمل لا يتأتى الوصول إلى اليقين.

وإن أفضل الطرق للنجاة من مضارّ الشبهة، هو العمل بما علمنا و التصديق به و كبت النفس.

❊ ❊ ❊

س: كيف يمكن للإنسان أن يكون في المجتمع و يعيش حياة طبيعية ويهذّب نفسه؟

إن الجهاد الأكبر و مجاهدة الهوى و الخيالات ليس بالعمل الهيّن. إلا أن القرآن الكريم قد دعانا إلى هذا الجهاد الأكبر: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} الليل/ ٥-٦-٧. فمن تحمّل في أوائل أمره المشاكل وراقب نفسه و اختار محبوباً سامياً، فإنه سوف لا ينظر إلى الآخرين نظرة محبوب.

و من تيّم قلبه بحبّ الله و اعتبر الآخرين أدوات للعمل بحيث أن في خدمتهم فضيلة، فإنه سوف لا يواجه مشكلة في الأعمال التنفيذية بتاتاً.

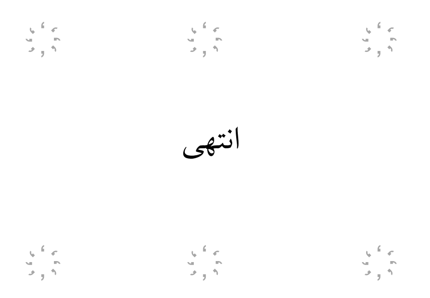
❊ ❊ ❊

س: بيّنوا لنا مسألة سلوك الصراط المستقيم حتى نصان من خلال السير فيه عن الطرق المنحرفة؟

إن الصراط المستقيم هو دين الله، و هو الموضع الذي قد تربّص فيه الشيطان. فمن كان عارفاً مراقباً، يعلم أن الطريق الذي يسلكه هو الصراط المستقيم أم لا. فإن سلك الإنسان جزءاً من الطريق بإخلاص فإنه سيطوي ما تبقّى منه بعناية الله. و إن الشيطان أيضاً قد ترصّد في الصراط المستقيم، و إلا فإنه هو الذي يدير الطريق المنحرف. أي أن من أغواه الشيطان بشيطنته، فإنه يسير في طريق منحرف.

فقد قال الشيطان: {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} الأعراف/ ١٦، بيد أن الله جلّت عظمته وعد أن تصيب نصرته من يقف شيئاً ما بوجه الشيطان حيث قال: {وَمَن يُؤْمِن بِاللهِّ يَهْدِ قَلْبَهُ} التغابن/ ١١، أو {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} النور/ ٥٤، أي أن من آمن بالله في المراحل الأولى و أطاع الله و رسوله، فإن جزاءه هو أن يسلك الصراط المستقيم بسهولة. فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} الليل/ ٥-٦-٧، أي أن من كان تقياً يُنفق أمواله في سبيل الله فإننا سنيسّر له القيام بالأعمال الحسنة. إذن على

الإنسان لاجتياز الصراط المستقيم بعد المعرفة أن تقترن حركته شيئاً ما بالإخلاص، و عندئذ سيتيسر له الاستمرار في هذا الطريق.



انتهى

فـائـدة*:

إن معرفة الحقائق وممارسة الأعمال الصالحة تعد من خصوصيات الإنسان، ولا شك أن معرفة حقيقة المبدأ والمعاد هي أكبر حقيقة ومصدر كافة الحقائق، والإنسان لا يمكن أن يعيش بعيداً عن نوع من التفكر بشأن هذا المبدأ والمعاد، من جهة أخرى فإن ممارسة العمل الصالح من أهم ما أوصت به جميع السنن والشرائع الإلهية، ثم بصريح الحال فإن هناك الكثير من الكلام حول معنى الإيمان «المعرفة» والعمل الصالح «العمل» ولو شئنا أن نصطلح لهما اصطلاحًا لجاز لنا القول بأن الإيمان هو كمال قوة العقل النظري والعمل الصالح يعني كمال قوة العقل العملي.

إن الإخلاص والعمل الصالح لا يتحقق ولا يعتبر صالحًا إلا إذا صدر عن إرادة عقلية حرة، نعم يمكن ملاحظة بعض السلوكيات الناشئة عن العادة والميل الطبيعي في كثير من الكائنات، إلا أن العمل الصالح والإخلاص في الأداء لا يعتبر هذه السلوكيات أعمالاً صالحة، ذلك أن الإخلاص لا يتحقق إلا عندما يشيح المرء بوجهه عن الدوافع

* هذه الفائدة مستقاة من كلمات الشيخ الجوادي الآملي.

والميول المعارضة «الأهواء والشهوات»، ولهذا عد العمل الصالح تكليفاً في الشريعة، والتكليف بمعنى المشقة والصعوبة على النفس.

وهنا إشارة إلى أمر مهم،

فقد حكيَ أن السيد ابن طاووس رحمه الله احتفل بسن بلوغ ولده فقال له: «اشكر الله سبحانه الذي أوصلك إلى عمر الشباب وإلى سن التكليف بحيث صرت مشمولاً لخطاب الله تعالى، حتى اليوم لم يكن الله يكلمك ولم يطلب منك شيئاً، ولكنك من اليوم صرت موضعاً للخطاب الإلهي، صرت مشمولاً بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا) وأنت الآن جزء من أولئك الذين توجه الخطاب الإلهي لهم، فاشكر الله تعالى على هذه الفضيلة».

اشكر الله أن جعلك موضعاً للخطاب لا لأداء التكاليف، لأنه ليس هناك كلفة ومشقة، فاستماع الأمر الإلهي تشريف لا تكليف وهذا هو طليعة الحب وفيه سر ما نقله ثقة

الإسلام الكليني في الكافي الشريف عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله:

أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه.

إنّ معرفة الحقائق وأداء الأعمال الصالحة من خصوصيات الإنسان، ومن ثم فإنّ العمل الصالح لا يعد عملاً صالحًا من ناحية النظر والمفهوم ما لم يكن وفق إرادة حرة عن سلاسل وقيود الذل والهوان الناشيء عن الشهوات والرغبات والميول الدنيوية، ولهذا عُد العمل الصالح في الشريعة تكليفاً والتكليف بمعنى التكلف والمشقة، بيد أنه من جهة أخرى ذكرنا أن الإنسان إذا عانق العبادة وعشقها فإنها بدورها لن تكون تكليفاً بل تشريفاً ولهذا قال مولانا الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله: أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه.

إن العشق كالنار التي تحرق كل شيء، حتى لا تدع موضعًا لغيرها قط، ولهذا طرح القرآن الكريم الحب الذي يعد من سنخ العشق كصفة كمالية تعد وصفاً للمؤمن، فقد قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة/ ١٦٥، فهذا الحب الشديد من الكمالات

العالية والمقامات الرفيعة التي إذا بلغها الإنسان لن يرى في دنياه سوى المعشوق، وقد يصل فيه إلى حد لا يرى فيه هذا العاشق غير معشوقه فلا يرى حتى نفسه.!

لكن ليس العشق وحده السبيل أو المقوم لنيل المقامات العالية، من يرجع إلى القرآن الكريم يعلم أن مقوم الإمامة في القرآن كان النظر والعمل، اليقين والصبر، فالصبر على البلاء والاحتساب عند الله تبارك وتعالى بدوره سبيل إلى نيل المقام الرفيع. وقد روي أن الصوفي أبا الحسن الخرقاني فاقت شهرته الآفاق، وقد سمع عنه الشيخ الرئيس ابن سينا، فقدم خرقان لرؤيته فلم يجده، فسأل عنه، فقالت زوجته: ماذا تريد من هذا الشيخ الكذاب؟! وقد كان الخرقاني يعاني كثيرًا من زوجته، فعلم الشيخ الرئيس بعد ذلك أنه خرج إلى الصحراء، فانطلق خلفه فلقيه وقد وضع حطبًا على ظهر الأسد، فقال له ابن سينا: ما هذا يا شيخ؟

فأجابه: لو لم نتحمل حمل ذلك الذئب (يعني زوجته)، لما تحمل هذا الأسد حملنا!

وقد روي أن أحد العرفاء ابتاع جارية اشتهر عنها سوء الأخلاق وبذاءة اللسان، ولطالما كانت تسيء إليه وإلى ضيوفه، وعندما سئل عن ذلك أفصح أنه عمد إلى ذلك من أجل أن يختبر نفسه من خلال تحمل سوء أخلاقها وقبح سلوكها، كل ذلك من أجل أن يحطم غروره وأنانيته، فتحمل الأذى والجفاء أمر يبعث على الكمال وقد ورد عن مولانا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله قوله: أفضل الإيمان الصبر والسماحة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله الأكرم وآله الميامين.